

الدور العلمي والحضاري لمكتبة بيت الحكمة في بغداد

The scientific and the civilized role of the House of Wisdom Library in Baghdad

حملاوي مهتور*

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة (الجزائر)

h.mehtour@univ-skikda.dz

تاريخ الارسال: 2024/12/25 تاريخ القبول: 2025/07/03 تاريخ النشر: 2025/09/20

ملخص:

تلعب المكتبات دورا بارزا في الحفاظ على تراث البشرية، وتقديمه للأجيال المتلاحقة على مر العصور، ونسعى من خلال هذا البحث؛ إلى التعريف بإحدى أشهر المكتبات في العالم العربي الإسلامي، وبيان دورها العلمي والحضاري، ويتعلق الأمر بمكتبة بيت الحكمة في بغداد، وهي المكتبة التي بلغت معها هذه الأخيرة أوج توهجها وتألقها العلمي والحضاري إلى أن قضى عليها التتار على يد هولاكو، وهنا تبرز مشكلة بحثنا، والتي تتمحور حول ما إذا كانت مكتبة بيت الحكمة قد انتهت بإتلاف كتبها وضياعها أم أن صداها وتأثيرها قد استمر على الرغم من ذلك، وهذا ما سنحاول توضيحه مستعينين بالمنهج الوثائقي عبر محطات تاريخية، نستعرض من خلالها نشأة بيت الحكمة ونكشف عن مسارها، ودورها في إنعاش الحياة الفكرية والعلمية في بغداد، وتأثيرها في غيرها من المكتبات في العراق وخارجه وننتهي في الأخير إلى التأكيد على أن مكتبة بيت الحكمة؛ قد ساهمت في الحفاظ على تراث الأمة العربية الإسلامية، وعلى تراث الأمم الأخرى القديمة مترجما إلى اللغة العربية.

الكلمات المفتاحية: بيت الحكمة؛ بغداد؛ المأمون؛ العلم؛ الحضارة.

Abstract:

Libraries play a key role in preserving humanity's heritage and passing it down through generations. This research aims to introduce the House of Wisdom (Bayt al-Hikma) in Baghdad, one of the most renowned libraries in the Arab-Islamic world, and examine its scientific and cultural impact. We explore whether its destruction by the Mongols led to the complete loss of its legacy, or if its influence persisted. Using a documentary approach, we trace the library's history, its role in Baghdad's intellectual life, and its impact on other libraries. Ultimately we affirm that the House of Wisdom contributed significantly to preserving both Arab-Islamic and other ancient civilizations' heritage, particularly through translations into Arabic.

Keywords: House of Wisdom; Baghdad; Al-Ma'mun; Science; Civilization.

1. مقدمة:

تعتبر المكتبات من أهم وسائل نشر المعرفة، وقد كانت ولا زالت، وستظل تحفظ تراث البشرية، وتحافظ عليه، وتقدمه إلى الأجيال المتلاحقة على مر العصور، وقد عرفت المكتبات في الإسلام انتشارا واسعا، وخاصة في العصر العباسي؛ الذي يعتبر عصرا للإبداع بامتياز، ففيه نضجت الحضارة الإسلامية، وأينعت وأتت أكلها، حيث زخرت البلاد الإسلامية بالعلماء والمعاهد، والمكتبات وكان ذلك ثمرة من ثمار الإسلام؛ فقد دعا هذا الأخير إلى المعرفة، والتعلم وإنارة العقول بالقراءة والكتابة.

ويكتسي الحديث عن المكتبات؛ أهمية بالغة بالنسبة للمجتمع العربي الإسلامي ذلك أن الحضارة العربية الإسلامية؛ قد تميزت بحمها للكتب واحتضانها للمكتبات وعنايتها بها وقد بدأت هذه العناية في عصر مبكر؛ فما كاد العرب يؤسسون دولتهم؛ حتى اجتهدوا في جمع تراثهم القديم وتدوينه ونشطوا في التأليف في علوم الإسلام، وسأرت هذا النشاط الجاد حركة منظمة لترجمة الآثار الفكرية، والعلمية لمختلف الشعوب ذات الإرث الحضاري؛ فكانت النهضة الفكرية والعلمية من دعائم النهضة العربية الإسلامية.

وقد أدرك المسلمون أهمية العلم، ودور المكتبات في حفظه من الضياع ونقله للأجيال اللاحقة؛ فاهتموا بالمكتبات ودور العلم، وضمن هذا السياق يأتي بحثنا هذا والذي نسعى من خلاله؛ إلى التعريف بإحدى أشهر المكتبات في تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وإبراز دورها العلمي والحضاري، ويتعلق الأمر بمكتبة بيت الحكمة في بغداد التي تعتبر أول مكتبة ذات مكانة وشأن في العالم الإسلامي، وهذا عبر إثارتنا لجملة من التساؤلات، وعلى رأسها: متى وكيف تم إنشاء بيت الحكمة؟ وإلى أي مدى أثرت هذه الأخيرة في الحياة العلمية والمسيرة الحضارية للمجتمع العربي الإسلامي والمجتمع الإنساني بشكل عام؟

وسنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة؛ مستعينين في ذلك بالمنهج الوثائقي، وبالاعتماد على خطة تستجيب لمساعنا المنهجي، وهي الخطة التي تشتمل على مقدمة، وأربعة عناصر، وخاتمة، وهذا على النحو الآتي:

2. بيت الحكمة وتاريخ إنشائها:

1.2 الحياة الفكرية في العالم الإسلامي قبل ظهور بيت الحكمة:

حرّى بنا قبل أن نتحدث عن مكتبة بيت الحكمة ومتى أنشئت، ومن الذي أنشأها أن نلقي بإطلالة على واقع الحياة الفكرية؛ في المرحلة التي سبقت ظهورها في العالم الإسلامي بوجه عام، وفي العراق بوجه خاص، وهنا يمكننا القول بأن القرآن الكريم قد كان له بالغ الأثر في انتشار التعليم بين العرب والمسلمين، وأنه قد صار أصلا للتعليم في العالم الإسلامي، وقد اتخذ رسول الله ﷺ المسجد للدراسة، واستمر المسجد مكانا لتعليم القرآن والحديث.

ولقد كان المسجد في صدر الإسلام؛ هو المنتدى الوحيد في أية مدينة إسلامية، وهو يؤدي دورا بارزا في الحياة الدينية، والسياسية، ففيه تقدم فرائض الدين، ويباع الخلفاء والأمراء، وفيه يتم التباحث والتشاور في أمور الحرب والسلم، وكثيرا ما تحدث فيه التجمعات السياسية. وقد كان المسجد إلى أواخر القرن الثالث الهجري على الأقل بمثابة المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة، ويلتقي فيها العلماء لإلقاء المحاضرات في حلقاتهم، ولوعظ الناس وإرشادهم وتنويرهم بمبادئ الدين الإسلامي¹.

¹ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ط1. القاهرة: دار الفكر العربي، دت، ص 94، 97.

وقد أصبحت المساجد في العراق معاهد مهمة؛ وقبله تشد إليها الرحال للدرس والتدريس؛ ولكي يحقق المسجد طموحات مريديه، ويعمل على تيسير عملهم العلمي ألحقت بكل مسجد مكتبة، تضم كما هائلا من الكتب في شتى العلوم والفنون، حتى أن بعض المساجد قد أصبحت أشبه بالأكاديميات الثقافية، ذلك أنها لم تكن مجرد أماكن للعبادة فحسب، وإنما أصبحت فضاءات للتزود بالآداب، والعلوم، والثقافات أيضا.

ويمكن القول بأن الانطلاقة الفعلية لعملية التزود بمختلف الثقافات؛ كانت مع ظهور حركة الترجمة؛ التي بدأت من السريانية إلى العربية بشكل محتشم في العصر الأموي؛ الذي انشغل فيه العرب بشؤون الحكم والرياسة، ولم يلتفتوا إلى الجانب العلمي أو الحركة العلمية إلا القليل منهم، ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية؛ الذي كان يسمى بحكيم آل مروان أحد أبرز المهتمين بالجانب العلمي، ويقال بأنه قد أمر بإحضار مجموعة من فلاسفة اليونان الذين نزلوا بمصر وأتقنوا اللغة العربية الفصحى، وكلفهم بنقل ما يسمى بكتب الصنعة من اليونانية إلى العربية، وقد كان ذلك أول ما نقل من لغة إلى لغة في الإسلام، وعلى العموم فإن الترجمة قد ظلت في العصر الأموي أعمالا فردية تنتعش بالأشخاص وتموت بموتهم².

وعندما آلت السلطة إلى العباسيين سنة 132هـ/750م، وانتقلت عاصمة العالم الإسلامي إلى بغداد؛ أولى خلفاء بني العباس عناية فائقة بالجانب العلمي والثقافي، وأبدوا حرصا شديدا على تحصيل العلم وتعميم المعرفة والترجمة إلى اللغة العربية، فامتلكت الأوساط العربية رصيда وزخما هائلا من الثقافات، حيث كانت حصيلة ثمانين عاما من بعد سقوط الدولة الأموية؛ امتلاك العالم العربي نسخا عربية لأكثر كتب أرسطو وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة، وبعض آثار أفلاطون، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ومؤلفات أخرى في الطب، وشروحا، وكتبا هندية وفارسية عديدة³. وقد استفاد المسلمون، ومن دون شك من هذه الكتب في أبحاثهم المختلفة، وإذا كانوا قد اعتمدوا على غيرهم ونهلوا واقتبسوا فهذا ليس عيبا؛ فقد الفكر أن يتأثر بغيره ويؤثر في غيره إذا كان يمتلك قوة التأثير.

² محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ط3. بيروت: منشورات عويدات 1983، ص293.

³ أوليري دي لامي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، نقله إلى العربية وعلق عليه اسماعيل البيطار. بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1982، ص92.

2. حركة الترجمة وظهور بيت الحكمة

حظيت الترجمة في العصر العباسي؛ بعناية خاصة من طرف خلفاء بني العباس فكانت بوابة العرب للانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى وعلومها والاطلاع عليها، وقد بدأت حركة الترجمة في عهد الخليفة المنصور (136-158هـ/752-747م)، الذي ترجمت له كتب كثيرة في الطب والنجوم والهندسة والآداب، كما ألقت له بعض الكتب في التاريخ والحديث والأدب، فعمل المنصور على جمع هذه الكتب في خزانة كانت بمثابة النواة الأولى لـ (بيت الحكمة) التي ظهرت من بعده⁴، وهنا لابد لنا من وقفة نؤكد فيها على أن لكل عمل أو انجاز انساني بؤاده وإرهاصاته؛ التي تمهد له قبل أن يتأسس ككيان قائم بذاته، ومكتبة بيت الحكمة الذي نتكلم عنها لا تشذ عن هذه القاعدة، فهي لم تخرج من فراغ، ولم تنشأ مكتملة دفعة واحدة، وهو ما يظهر بكل وضوح وجلاء في سجلات التاريخ.

فعندما جاء هارون الرشيد (170-193هـ/786-808م) سار على خطى المنصور فواصل اهتمامه بالترجمة، وكان من بين أهدافه جمع المزيد من الكتب والمخطوطات في شتى العلوم، كالطب، والفلك، والرياضيات، والفلسفة، ولعله أول من بدأ بالحملات العسكرية ذات الهدف العلمي؛ حيث كان يقوم بنفسه بغزو بلاد الروم كل سنة، فكان يطلق على الغزوات اسم الصوائف⁵.

وقد كان هارون الرشيد يعتبر الغزوات وسيلة لتوسيع حدود الدولة العباسية، ونشر الإسلام، وكانت الغنائم الثقافية والمعرفية التي يتم الحصول عليها خلال هذه الغزوات تُستخدم لدعم المؤسسات العلمية مثل "بيت الحكمة". وهكذا أصبح الغزو بالنسبة له وسيلة لتحقيق نهضة ثقافية وعلمية عظيمة.

⁴ حيدر قاسم التميمي. بيت الحكمة العباسي دوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي، ط، عمان الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 2011، ص41.

⁵ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص49، 50.

وبغية تحقيق هدفه الثقافي والحضاري النبيل؛ جعل هارون الرشيد ذلك الزخم الهائل من المؤلفات والمخطوطات في متناول الناس، وفتح الفضاء العلمي والمعرفي والثقافي المعروف بـ "بيت الحكمة" أو "خزانة الحكمة"، وكانت الحكمة في ذلك الوقت مرادفة للفلسفة، وخاصة الفلسفة اليونانية، وكانت كلمة فلسفة تشمل عدا مباحث الفلسفة المعروفة الطب والفلك وعلم الهيئة والطبيعة والرياضيات، والمنطق، وهذا يدل على الاتجاه العقلي لمؤسس بيت الحكمة، أما كلمة الخزانة أو البيت؛ فهي تدل على المكان الذي يوضع فيه الشيء أو يخزن.⁶

وتعتبر بيت الحكمة من المكتبات الأكاديمية الشهيرة، التي كانت تضم العديد من المخطوطات الإغريقية والآداب الشرقية المختلفة؛ التي أمر الخليفة هارون الرشيد بجمعها وترجمتها إلى العربية.⁷ وفي عهد هذا الأخير أصبحت بغداد قبلة للعلم والأدب ذلك أن بيت الحكمة لم تكن تهتم بالترجمة في مجال العلوم المحضة فقط، وإنما كانت تهتم بترجمة الكتب الأدبية، وكل ما يتعلق بالإنسانيات أيضاً، ومن ذلك كتاب "كليلة ودمنة"، وهو كتاب في الأخلاق والعبر والحكمة لمؤلفه الفيلسوف الهندي بيدبا، وقد كانت أول ترجمة له على يد عبد الله بن المقفع.⁸

وقد جمعت بيت الحكمة مشاهير الأساتذة، أمثال الأصمعي النحوي والشافعي، وعيسى يونس الصوفي، وسفيان الثوري، وإبراهيم الموصلي الموسيقي، وجبرائيل بن بختيشوع الطبيب، وبفضل مساهماتهم تألفت بغداد بعد أن "اكتملت لها ألوان من العظمة والقوة والمجد العلمي".⁹

⁶ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص21.

⁷ سعيد أحمد حسن، أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ط1. عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع 1984، ص119، 120.

⁸ فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، ط1. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989، ص94.

⁹ أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، ط1. الدمام: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996، ص186.

وفي عهد المأمون (198-218هـ/813-833م) الذي حكم الأمة حكم لين لا يخالطه الضعف، وقوة لا يخالطها العنف؛ ظهرت بغداد في أوج قوتها وتألقتها، وقد اتسعت فيها الحركة العلمية؛ فأضحت مدينة للعلم والعلماء بامتياز.¹⁰

وقد اتسعت حركة الترجمة في عهد المأمون بشكل كبير، وكان للكتب العلمية والفلسفية؛ النصيب الأوفر من عملية الترجمة، وقد تربع على عرش الترجمة حنين بن إسحاق؛ الذي كان مسؤولاً عن الترجمة في بيت الحكمة، وكان يهتم بترجمة كتب الطب والمنطق والفلسفة، كما اشتهر من المترجمين أيضاً إسحاق بن حنين؛ الذي سار على نهج والده في ترجمة كتب الفلسفة والطب، ومن أشهر المترجمين أيضاً يوحنا البطريق؛ الذي كلفه المأمون بترجمة الكتب الطبية والفلسفية، كما اشتهر أيضاً قسطا بن لوقا البعلبكي الذي عرف بقدرته على الترجمة المباشرة من اليونانية إلى العربية، وبنقله وشرحه للكثير من كتب أفلاطون وأرسطو¹¹، واشتهر من المترجمين أيضاً الحجاج بن يوسف بن مطر الذي ترجم للخليفة المأمون مصنفات إقليدس، وكتاب بطليموس المعروف عند العرب بالمجسطي¹².

وقد كان المأمون يرسل ملوك الروم، ويطلب منهم تزويده بما يمتلكون من كتب علمية وفلسفية، لأنه كان جادا في طلب العلم شغوفاً به كثير المخالطة للعلماء، وقد تمكن بفضل فضوله ومثابرته من تحصيل جملة من العلوم الدينية؛ كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية¹³.

وليس من باب المبالغة القول بأن التطور الحقيقي لبيت الحكمة؛ قد كان في عهد المأمون، فقد عمل هذا الأخير على توسيعها، وتزويدها بالموظفين والمترجمين والعلماء حتى غدت مركز إشعاع فكري وعلمي، وقد كان لحركة الترجمة التي احتضنتها بيت الحكمة في عهد المأمون؛ دورها البارز في بعث نهضة فكرية وعلمية جديدة في الوسط الثقافي داخل المجتمع العباسي.

¹⁰ حسن خليفة، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، ط1. القاهرة: المطبعة الحديثة، دت، ص101.

¹¹ محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام. بيروت: دار النهضة العربية، 1976، ص101، 102.

¹² أحمد شلي، موسوعة التاريخ الإسلامي، 3. الخلافة العباسية، ط8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1985، ص180، 181.

¹³ محمد الخضري، الدولة العباسية. بيروت، لبنان: دار المعرفة، 1998، ص178.

3. دور بيت الحكمة في تنشيط الحياة الفكرية، وأثرها في المكتبات الإسلامية:

1.3 دور بيت الحكمة في تنشيط الحياة الفكرية في المجتمع العباسي:

لقد استطاعت مكتبة بيت الحكمة؛ أن تحصل على كم هائل من الكتب، وكانت رسالتها الأساسية ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية، وكان ذلك على يد يوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحاق، وقد زخرت خزائن بيت الحكمة بالكتب المترجمة، وأقبل الناس على قراءة هذه الكتب والتمعن فيها، وهو ما أدى إلى حدوث انتعاشه وحركة فكرية جديدة، في التأليف والنشر، وقد أنتجت هذه الحركة ثقافة واسعة تزوج بين القديم والحديث، وكان ذلك مؤشرا واضحا على تحقق أهداف بيت الحكمة، والتي على رأسها نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين، والمحافظة على الكتب والمصنفات التي تترجم وتصنف¹⁴.

وقد جاءت مكتبة بيت الحكمة؛ لتعمل على إنعاش الحياة الفكرية في المجتمع العباسي، حيث استطاعت أن تخلق في الأفراد روح الإيمان بقدرتهم على الإنتاج والإبداع، وتنشئ فيهم الشعور بالعزة القومية، والاهتمام بماضي الأمة والعمل على ربطه بحاضرها، لتعريف الناشئة بجهود أسلافهم، ومآثرهم في ميادين العلوم المختلفة.

لقد عملت بيت الحكمة على فتح فضاءات، وآفاق ثقافية مشجعة على البحث والإبداع في شتى مجالات العلم والمعرفة؛ فكانت بذلك من أقوى العوامل المساهمة في النهضة العباسية، فقد أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في شتى نواحيها بمالهم وجاههم، وقد اهتموا بالعلماء والأدباء، وكانوا يولونهم أحيانا المناصب العليا، ثم سار الأمراء والوزراء على خطى الخلفاء في أكبر مدن الدولة، فكانوا يتنافسون في فتح دور العلم وفضاءاته.

وكان المهتمون بالعلم والمعرفة يتهافتون على المكتبات؛ التي أطلق عليها اسم "المعاهد العلمية"، لأن الدور الذي كانت تقوم به لا يقل أهمية عن دور المعاهد الرسمية وقد كانت هذه المكتبات تحتضن النوادي الفكرية حيث يجتمع طلاب المعرفة؛ فتدور بينهم المناظرات والمناقشات، وقد ساهمت هذه النوادي في إنعاش الحياة الفكرية في المجتمع العباسي¹⁵.

¹⁴ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص 42، 43.

¹⁵ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص 84.

لقد دفعت بيت الحكمة بالمجتمع العباسي إلى العمل، والتنافس في شتى الميادين النظرية والعملية؛ فتمكنت بغداد حاضرة بني العباس من الرقي درجة لم تبلغها مدينة غيرها في تلك العصور، فكانت زهرة المشرق وجنة الدنيا، فقد فاقت بغداد سائر المدن بما اشتملت عليه من أسباب المدنية الزاهرة؛ إذ امتلأت بالمدارس، ودور العلم، فبرزت كمعلم وصرح علمي وثقافي وحضاري متميز.

وهكذا أصبحت بغداد، وبفضل إسهامات بيت الحكمة من أكبر عواصم الدنيا إشعاعاً وتأثيراً في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، بعد أن ورثت ملك كسرى، ومعظم بلاد الدولة الرومانية، وفتحت أبوابها لثقافات الشرق والغرب فاقتبست منها، وأضافت إليها، وأصبحت من أكبر المراكز الثقافية في العالم؛ قامت فيها، وعلى مدار خمسة قرون وأكثر دراسات دينية ولغوية وعلمية، وفلسفية، منقطعة النظير.

1.3 أثر بيت الحكمة في المكتبات الإسلامية:

تعتبر المكتبات مظهر حضاري؛ ووجهها يكشف عن رقي الشعوب وتقدمها واهتمامها بالفكر والثقافة والعلوم، وهي المنبع والوعاء والسجل الحافظ لكنوز المعرفة التي تركها الأسلاف، وقد أدت مكتبة بيت الحكمة هذا الدور بامتياز؛ حيث كشف القائمون عليها عن شغفهم ولولهم الشديد بالكتب واقتنائها؛ وهو ما أدى إلى ظهور صنعة الوراقة، وهي الصنعة التي تشتمل على نسخ الكتب وتجليدها وبيعها، وبيع الورق وسائر أدوات الكتابة، وقد نتج عن إقبال الناس على الكتب ازدهار صناعة الورق التي تعلمها العرب من الصينيين، ومن العرب انتقلت إلى سائر أنحاء أوروبا؛ فكانت من العوامل الممهدة للنهضة العلمية الحديثة¹⁶.

وقد كان المسلمون مثالا في إنشاء المكتبات؛ في الممالك الإسلامية كما كانوا مثالا في سائر أسباب النهضة العالمية؛ فقد اقتدى ببيت الحكمة الكثير من الوزراء والأمراء داخل بغداد وخارجها؛ حيث أنشئت العديد من دور الكتب في بغداد، وجمع لها من الكتب الكثير؛ فكانت هذه الدور جميعها صروحا علمية، وأركاناً للنهضة العلمية في الدولة العباسية، وقد امتد صدها وتأثيرها إلى خارج بغداد.

¹⁶ حسن خليفة، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، ص9.

ففي الأندلس ساهم بيت الحكمة البغدادي في إنعاش الحياة الثقافية حيث دعمها، وزودها بالعلماء والعلوم، وشجعها على التأليف والترجمة، وهذا بفضل الصلات الثقافية بين بغداد والأندلس، حيث أن عددا كبيرا من طلبة الأندلس قد تتلمذوا في مدارس عراقية في بغداد والكوفة والبصرة وغيرها من مدن العراق، وقد كان للأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (206-238هـ) الذي عاصر الخليفة العباسي المأمون دورا كبيرا في نقل الحضارة العراقية إلى الأندلس¹⁷.

وفي قرطبة تشبّه بنو أمية بالمأمون؛ ونسجوا على منواله فأخذوا في إنشاء دور الكتب وملأها بأنفس الكتب، وعجيب المخطوطات، وأشبههم به الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة سنة 350 هـ؛ فقد كان محبا للعلم والعلماء، وقد أنشأ في قرطبة دار كتب كبيرة، وجمع لها كما هائلا من الكتب من جميع الجهات، حيث أنه كان يرسل التجار لشراؤها من أسواق العالم.

كما اقتدى بخلفاء بغداد الخلفاء الفاطميون في مصر؛ فبعد إنشاء مكتبة قرطبة بسنوات قليلة؛ أنشأ العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين مكتبة ضخمة وصفت بأنها من عجائب الدنيا، وقد خصص لها قاعات سماها خزائن الكتب، ثم أنشأ الحاكم بأمر الله العزيز بالله سنة (395هـ/1004م) دار الحكمة بجوار القصر الغربي، ويقدر ما كان فيها من الكتب بنحو مائة ألف مجلد¹⁸، وهي كتب تجمع بين شتى العلوم والفنون والمعارف، كما أنها من الكتب النادرة والصعبة المنال، وقد كانت في غاية الجودة كتابة، وتجليدا وزخرفة¹⁹.

وفي طرابلس الشام؛ كان لبني عمار في القرن الخامس دارا للعلم أسسوها لنشر مذهبهم الشيعي، وكانت بها مكتبة عامة يعمل بها أكثر من مائة وثمانين ناسخا يتناوبون العمل في الليل والنهار، ويقال بأن كتبها قد قدرت بثلاثة ملايين مجلد، وفي أوائل القرن السابع ظهرت عشر مكتبات في مرو وهي تعتبر من أكثر المكتبات كتباً.

¹⁷ حيدر قاسم التميمي، بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي، ط1. عمان الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 2011، ص165.

¹⁸ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص124، 125.

¹⁹ حيدر قاسم التميمي، المرجع السابق، ص68.

وإذا كانت المكتبات العامة اليوم تعتبر مقياساً لرقى الأمم والشعوب فلقد سبق المسلمون أمم العالم في إنشاء هذا النوع من المكتبات، ولم تكن تلك المكتبات مباحة لمختلف فئات الشعب فقط؛ كما هو شأن المكتبات العامة اليوم، وإنما كان بعضها يقدم الأوراق والأقلام والمداد للرواد من طلاب العلم، وكان بعضها الآخر يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك فيقدم لهم الطعام والشراب والنفقة؛ مثلما كانت تفعل مكتبات البصرة²⁰.

4. بيت الحكمة النهاية والأثر والممد الحضاري:

1.4 نهاية بيت الحكمة:

لم ينل بيت الحكمة من العناية والاهتمام مثلما نال في عهد الخليفة المأمون؛ فقد كان هذا الأخير يهب للعلم من وقته الكثير، وقد نال العلماء كثيراً من عطفه وعنايته ولكن بيت الحكمة تم إهماله بعد ذلك؛ فنجد بأن الخليفة المعتصم قد أهمل شأن هذا البيت، لتراجع مكانته، بعد أن توالى عليه الأحداث والهزات، ولكنه مع ذلك ظل يقاوم حتى داهم التتار بغداد، وقتل هولاء المعتصم آخر الخلفاء العباسيين؛ فانتهى بذلك ومع الأسف أمر هذه المؤسسة العظيمة واندثرت خزانة الكتب، وضاعت آثارها²¹.

ففي سنة 1258م، وفي فترة عرفت عموماً بضعف ملوك الإسلام وتخاذلهم وانصرافهم عن الجد والجهاد إلى اللهو واللعب²² وصل هولاء إلى أسوار بغداد؛ بعد أن خضع له كثير من أمراء المسلمين الذين مر بهم في طريقه من بلاد التتار؛ وأصبح كثير منهم مستشارين له، وكان قصر الخلافة قد امتلأ بالرافضة والباطنية مثل الوزير ابن العلقمي الذي اجتمع مع هولاء، وعندما استشار الخليفة وزيره ابن العلقمي نصحه بمصانعة التتار، وقد لعب هذا الوزير دوراً خطيراً في دعم التتار، وسهل لهم قتل العلماء والأمراء.

وقد خرج الخليفة إلى هولاء قبل ذلك؛ في محاولة منه للاستسلام دون إراقة الدماء، ومعه ثلاثة آلاف من الفقهاء والعلماء والأعيان، فطلب منه هولاء أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح؛ ففعل الخليفة ذلك، ليستبجح جند هولاء المدينة بعد ذلك ويعيثون فيها

²⁰ عبد الستار الحلوجي، دراسات في الكتب والمكتبات، ط1. المملكة العربية السعودية: مكتبة مصباح ص22، ص23.

²¹ عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ص58، ص67.

²² سليمان بن حمد العودة، كيف دخل التتر بلاد المسلمين؟ الأدوار الخفية في سقوط الخلافة العباسية، ط2 الرياض: دار طبعة للنشر والتوزيع، 1997، ص39.

فسادا؛ ثم قتل الخليفة، وبعد أربعين يوما من دخول التتار بغداد؛ أصبحت هذه الأخيرة خاوية على عروشها، ولأن التتار يدركون جيدا أهمية العلم في بناء حضارة الأمم؛ فقد ركزوا على إتلاف الكتب؛ حتى أنهم ملأوا نهر دجلة بها، وجعلوها جسورا لخيولهم؛ فتحوّلت مياه النهر إلى اللون الأسود نتيجة لاختلاطها بالمداد.²³

وهكذا نجد بأن مكتبة بيت الحكمة في بغداد؛ قد كانت نهايتها بسقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية على يد التتار؛ حيث عملوا على إبادة كل شيء؛ فضاعت المخطوطات والذخائر النفيسة؛ التي كانت مكنوزة بها منذ قرون؛ فقد ألقوا ببعضها في نهر دجلة وأحرقوا البعض الآخر.

فبعد أن بلغت بغداد ذروة تألقها وعطائها الحضاري؛ جاءت معاول الهدم مع هولاء كعدو الفكر والحضارة، وعدو الرحمة والشفقة، وصديق الغدر والخيانة والهمجية والوحشية؛ لتهدم كل شيء وتقضي على العلم والعلماء، وعلى الكتب والمكتبات، وتطفئ بذلك مشاعل النور التي أوقدها خلفاء بني العباس للناس؛ لكي يهتدوا بها في ليالي الجهل المظلمة.

وقد كانت نهاية بيت الحكمة؛ بمثابة نهاية لمرحلة حضارية فرضت فيها الأمة العربية نفسها، فقد سادت وقادت، وحملت مشعل الحضارة، ومضت تنير به للدنيا كلها دروب العلم والمعرفة، وكنتيجة لذلك لجأت المكتبات إلى المساجد والبيوت، وتراجع دورها الحضاري؛ وأصبحت مجرد مستودعات يتجمع فيها ما سلم من كتب.²⁴

لقد كانت نهاية بيت الحكمة؛ خسارة عظيمة لا تعوض في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، حيث كانت نهايتها بمثابة النهاية لعصر الازدهار الذي عرفته بغداد؛ بفضل الكثير من أعلامها ومفكرها عبر تاريخها الطويل، وعندما بدأت بغداد تلملم جراحها؛ آلت الدولة إلى أيدي أمراء لا يعينهم شأن العلوم، ولا يكثرثون بتطويرها؛ بقدر ما كانوا مهتمين بتجميع ما ضاع بفعل الغزو؛ فتراجعت مكانة اللغة العربية؛ بعدما كانت لغة العلم والثقافة.

²³ أحمد منصور، قصة سقوط بغداد، الحقيقة بالوثائق، ط6، بيروت، لبنان: دار ابن حزم، 2004، ص 96-97.

²⁴ - عبد الستار الحلوجي، دراسات في الكتب والمكتبات، ص 25.

2.4 بيت الحكمة الأثر والمد الحضاري:

إذا كانت مكتبة بيت الحكمة قد زالت وتلاشت، فإنها تنبهنا ومن دون شك إلى ضرورة العمل على التأصيل للظاهرة العلمية وتوطئتها في ثقافتنا العربية الإسلامية؛ فتاريخ العلم والمكتبات عند العرب؛ يشغل كل الفضاء الحضاري، وبغض النظر عن الطول الزمني لهذا الفضاء الذي تشغله العلوم عند العرب، فإن أهميتها الخاصة تأتي من أنها المرحلة المفضية تاريخيًا، ومنطقيًا إلى مرحلة العلم الغربي الحديث.

وتزداد الأهمية العلمية والموضوعية؛ لدراسة ماضي العلم والمكتبات عند العرب والمسلمين؛ من التعرف إلى أسباب تراجع الحضارة العربية الإسلامية؛ بعد أن بلغت قمة المجد²⁵، وتكتسي العودة إلى الإسهامات العلمية والحضارية للأمة العربية الإسلامية أهمية بالغة؛ لكونها قد حظيت بحصة الأسد من التشويه الأيديولوجي لتاريخ العلم بفعل عوامل لا موضوعية ولا منهجية سادت ولردح من الزمن؛ خرافة مغرضة تؤكد أن العلم ظاهرة غربية بدأت من الصفر المطلق مع الإغريق، وعبر فجوة باهتة مظلمة هي العصور الوسطى انتقل إلى أحفادهم، وورثتهم الشرعيّين في مراكز العلم الحديث في أوروبا²⁶.

والحقيقة التي لا مراء فيها؛ هي أن الحضارة الغربية مدينة في ما حققتة من ازدهار علمي وحضاري للعرب والمسلمين، فقد فتح المسلمون أسبانيا وجعلوا منها فضاء حضاريًا، وعلميًا، وأدبيًا بامتياز، ووطدوا على أرضها دعائم حضارة؛ كان لها أثرها البالغ في إيقاظ البشرية من غفوتها، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وهو التأثير الذي اعترف به الكثير من مفكري الغرب ومستشرقيه، ومنهم المستشرق الألمانية زيغريد هونكة التي تتأسف في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"؛ وبمرارة لجهل الناس في الغرب بفضل العرب عليهم فتقول: "إن الناس عندنا لا يعرفون إلا القليل عن جهودكم -العرب- الحضارية الخالدة ودورها في نمو حضارة الغرب"²⁷.

²⁵ رياض بن علي الجوادي، الحضارة الإسلامية- أسباب التراجع وشروط النهضة- ط1. تونس: دار التجديد للنشر والتوزيع، 2020، ص15.

²⁶ منى طريف الخولي، بحوث في تاريخ العلوم عند العرب. المملكة المتحدة: هنداي، 2018، ص11، 12.

²⁷ زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط8 بيروت: دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، 1983، ص9.

لقد تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة العربية الإسلامية عبر بغداد؛ مقر بيت الحكمة، التي أثرت في الأندلس، وهذه الأخيرة أصبحت جسرا ومعبرا لتراث العرب والمسلمين إلى أوروبا، وعن طريق العلاقات الثقافية بين الأندلس وبغداد؛ تعرفت أوروبا على الكثير من المعارف والتجارب، والمكتشفات العلمية، وهو الأمر الذي وقّر على الأوروبيين الكثير من الجهد والوقت، وهذا ما يلخصه فيلسوف الحضارة الفرنسي غوستاف لوبون بقوله: "لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون"²⁸.

فقد انتشرت المدارس، والمعاهد، والجامعات الإسلامية في كافة العواصم الإسلامية، وفتحت أبوابها لكل طالبي العلم المسلمين وغير المسلمين الذين يعيشون داخل ديار الإسلام وخارجها في ظل السماحة الإسلامية، فجاء طلاب العلم من كل أنحاء العالم ليتلقوا العلم في المدارس الإسلامية، وعلى أيدي العلماء المسلمين، فنقلوا أسس، ومظاهر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا التي كانت تعاني الظلام والتدهور الحضاري آنذاك²⁹.

²⁸ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: هنداوي، 2012، ص588.

²⁹ عبد العزيز عبد المطلب السيد، أثر الحضارة الإسلامية على الشرق والغرب، جوستاف لوبون نموذجا، ط1. دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2014، ص80.

خاتمة:

ختاما يمكننا القول بأن العلم هو التاريخ الحقيقي للإنسان، فالعلم هو جوهر الحضارة في تطورها الصاعد دوماً، ومكتبة بيت الحكمة ببغداد تعتبر وبحق إحدى المؤسسات العلمية، والثقافية التي لعبت دورا بارزا في العصر العباسي؛ كمكتبة عظيمة ودار ترجمة، وجامعة إسلامية عريقة ساهمت في النهضة العلمية والفكرية في بغداد، وقد كان لها صداها وتأثيرها الكبير في القاهرة، وقرطبة، والأندلس، وغيرها من البلاد الأخرى بعد أن تزودت بزاد فكري لا ينضب، في ظل تشجيع خلفاء الدولة العباسية للحركة العلمية وخاصة الرشيد والمأمون، حيث بلغت الدولة العباسية في عهدهما أوج مجدها فقد زهت العلوم والمعارف، وترجمت الكتب، وأصبح العلم ميسرا لطلابيه ومحبيه، وقد لعب هذا العامل دورا بارزا في ازدهار الحركة العلمية؛ فأصبحت بغداد قبلة للعلماء من كل حذب وصوب.

وقد ساهمت مكتبة بيت الحكمة في الحفاظ على التراث الإسلامي للأمة العربية وعلى تراث الأمم الأخرى القديمة مترجما إلى لغة القرآن، وظلت بيت الحكمة منارة حضارية شامخة متألفة ومتألثة؛ تضيء للعالم سبل العلم والهداية على مدى خمسة قرون كاملة، ثم كانت نكبتها، ونهايتها المحزنة على يد التتار ليضيع بذلك جزء كبير من التراث العربي الإسلامي، وعلى الرغم من ذلك فإن مكتبة بيت الحكمة؛ قد حفظت للإنسانية كثيرا من تراث العالم المتحضر؛ الذي ضاعت أصوله، ولم يجد الغرب غير العربية وسيلة للحصول على تراث الحضارة الأوروبية الغربية، فكانت أداة لنقل الحضارة القديمة، والحضارة العربية إلى الغرب، ومنطلقا للعلم الحديث.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، 3 الخلافة العباسية، ط8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية 1985.
- 2- أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، ط1. الدمام: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996.
- 3- أحمد منصور. قصة سقوط بغداد، الحقيقة بالوثائق، ط6. بيروت، لبنان: دار ابن حزم، 2004.
- 4- أوليري دي لاسي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، نقله إلى العربية وعلق عليه اسماعيل البيطار. بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني، 1982.
- 5- حيدر قاسم التميمي، بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي، ط1. عمان الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع، 2011.
- 6- حسن خليفة، الدولة العباسية قيامها وسقوطها، ط1. القاهرة: المطبعة الحديثة، د.ت.
- 7- رياض بن علي الجوادي، الحضارة الإسلامية- أسباب التراجع وشروط النهضة- ط1. تونس: دار التجديد للنشر والتوزيع، 2020.
- 8- زغيريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الألمانية فاروق بيضون كمال دسوقي، ط8 بيروت: دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، 1983.
- 9- سليمان بن حمد العودة، كيف دخل التتر بلاد المسلمين؟ الأدوار الخفية في سقوط الخلافة العباسية، ط2 الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1997.
- 10- سعيد أحمد حسن، أنواع المكتبات في العالمين العربي والإسلامي، ط1. عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع 1984.
- 11- عبد الستار الحلوجي، دراسات في الكتب والمكتبات، ط1. المملكة العربية السعودية: مكتبة مصباح، 1988.
- 12- عطا الله خضر أحمد، بيت الحكمة في عصر العباسيين، ط1. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.
- 13- عبد العزيز عبد المطلب السيد، أثر الحضارة الإسلامية على الشرق والغرب جوستاف لوبون نموذجاً، ط1، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2014.
- 14- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: هنداي، 2012.
- 15- فاروق عمر فوزي، الخليفة المجاهد هارون الرشيد، ط1. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1989.
- 16- محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ط3. بيروت: منشورات عويدات 1983.
- 17- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام. بيروت: دار النهضة العربية 1976.
- 18- محمد الخضري، الدولة العباسية. بيروت، لبنان: دار المعرفة، 1998.
- 19- منى طريف الخولي، بحوث في تاريخ العلوم عند العرب. المملكة المتحدة: هنداي 2018.